

# الكلمة

صالح الهطالي

١٣ من ذي القعدة لعام ١٤٢٣ هـ / ١٦ من يناير لعام ٢٠٠٣ م

كلنا يدرك ما تحمله الكلمة المكتوبة من أثر إيجابي أو سلبي في نفس القارئ. لكن، هل وقفنا يوماً وتساءلنا: أين يكمن سرُّ التأثير؟ هل هو في ما تحمله الكلمة نفسها من معنى، أم في الدور الذي تلعبه في النص الذي وُجِدَتْ فيه؟ هل التأثير في شكل الكلمة، أم في إيقاعها الصوتي في ذهن القارئ؟ هل التأثير في لون الخط أو نوعه أو حجمه، أم في عدد حروف الكلمة، أم في مخارج تلك الحروف؟ هل التأثير أصليٌّ وُلِدَ بميلاد الكلمة، أم هو طارئٌ تعارف الناس على أن تحمل كل كلمة معنىً خاصاً يؤثر في السامع بطريقة معينة؟ وهل التأثير راجعٌ إلى الحالة النفسية أو الصحية أو الثقافية أو الفكرية أو الاجتماعية أو غيرها من الحالات التي يكون عليها القارئ أو المستمع، أم إن التأثير راجعٌ إلى الحالة التي كان عليها الكاتب أو المُلقِي لتلك الكلمة؟ وهل يعود تأثير الكلمة على ما يترتب على نطق كل حرف من حروفها من تغيُّرات فسيولوجية في جسم القارئ أو المستمع، أم إن التأثير يعود إلى الذبذبات والتموجات الصوتية والكهرومغناطيسية التي تنتج حال النطق بالكلمة، والتي قد تؤثر في حدة الطاقة الكونية المحيطة بالناطق للكلمة وتمازجها، مما تؤدي بدورها إلى إحداث تغيُّرات في الطاقة الكامنة في جسم المتلقي لها؟

إني أكاد أجزم أن لكل عنصر من عناصر التأثير التي ذكرتها دورًا فيما يمكن أن تُحدِثه الكلمة في القارئ أو السامع، وتتفاوت درجة التأثير زيادةً ونقصاناً في عدد العناصر التي قد تجتمع في الكلمة في آنٍ واحد، وفي حدة أو ضعف كل عنصر عند قراءة أو سماع الكلمة. ورغم أن كاتب الكلمة أو الناطق بها لا يمتلك القدرة في التحكم بجميع العناصر التي ذكرناها، إلا أن هناك من الناس مَنْ يستطيعون سبك كلماتهم بطريقة تجعل عناصر التأثير التي ذكرناها في أوج فاعليتها، بحيث تُحدِث في

القارئ أو المستمع أعلى درجات التأثير. وكما أن المُخرج السينمائي يستخدم أدوات متاحة لجميع الناس من أضواء ومؤثرات صوتية وديكور، إلا أنه يستخدم كل واحدة منها بمقدار معين، ولفترات محدودة، وهو بذلك يُفخِّم مقدار ما يمكن أن تحمله تلك الأدوات من قدرات في التأثير على المشاهد. كذلك، فإن الكاتب المحترف أو المُلقّي البارِع هو مَنْ يستطيع إعطاء كل كلمة القدر المناسب من كل عنصر من عناصر التأثير الذي يمكنه أن ينتج أكبر مقدار من التأثير.

وإذا كانت التأثيرات الصوتية التي يمكن أن يقذفها المتحدث في أذن المستمع قد تعطي فرصة أكبر للتأثير من الكاتب الذي لا يستطيع أن يتحكم في طريقة نطق القارئ للكلمة، إلا أن للكاتب فرصة أكبر في التأثير من المتحدث وذلك لكون المتحدث يفتقد القدرة في التحكم في الحالات التي يكون عليها المستمع وهو أمرٌ لا يتعرض له الكاتب، إذ إنه- في معظم الأحيان- تُقرأ كلماته في أوقات يكون فيها القارئ متهيئًا للاستفادة منها. كذلك، فإن غالب المتحدثين لا يُرِدُّون الكلمات الصادرة من أفواههم، بخلاف القارئ الذي يمكن أن يعيد ما يقرأ مرارًا وتكرارًا إلى أن يستوعب ما يقرؤه. ومما لا شك فيه أن التسجيلات الصوتية قد تُعوِّض بعض هذه النواقص بما تتيحه للمستمع من القدرة على اختيار الوقت المناسب للاستماع ومن ترديد ما يسمعه. غير أن التسجيلات الصوتية- حالها كحال المادة المكتوبة- تفتقد عنصرًا مهمًّا من عناصر التأثير التي يتمتع بها المتحدث؛ ألا وهي الرسائل الضمنية المتبادلة بين المتحدث والمستمع، والمتبلورة في سمات الوجه، وحركات الأعضاء الخارجية، وسلوكيات الشخص أثناء الحديث أو التلقي، ومن غير المستبعد أن يكون لكل واحدة منها تأثيرٌ سلبِيٌّ أو إيجابِيٌّ، قويٌّ أو ضعيفٌ، على مقدار التأثير الذي تحمله كل كلمة إلى أذن المستمع.

الخلاصة من كل هذا هو أن الكلمة- سواءً المكتوبة أم المنطوقة- ورغم صغر حجمها وضعف بنائها، إلا أنه يمكنها أن تكون ذات تأثير قويٍّ وفعال في حياة المعنيين بها مباشرة من متحدثين وكاتبين وقراء ومستمعين، وأيضًا في حياة الآخرين الذين سيتأثرون حتمًا بالتغيرات التي ستطرأ في حياة المتأثرين بالكلمة بصورة مباشرة. كذلك، فكلنا يدرك- والشواهد على ذلك من التاريخ معروفة- ما يمكن أن تفعله الكلمة في حياة الأمم والشعوب؛ فكم من حضارة قامت وأخرى توارت بفعل كلمة واحدة، وكم من شعب ذلَّ وباد وشعب عزَّ وساد بكلمة قالها أو قيلت في حقه. وصدق الله الحكيم العليم حين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ \*

تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٤-٢٦﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٦)، وصدق رسوله الكريم - عليه أفضل الصلاة والسلام - حين يقول: ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))<sup>(١)</sup>. لهذا، فعليك يا أخي القارئ أن تنتبه في المرات القادمة إلى الكلمات التي تكتبها أو تلك التي تتفوه بها. كذلك، فلا تحقرن الوقت الذي تقضيه في انتقاء كلماتك وسبكها لتخرج جواهر منتقاة تُزِينُ بها جيدَ فيك وعواتق إبداعاتك.

---

(١) رواه الإمام البخاري (حديث رقم: ٦٤٧٨، ج ٨، ص ١٠١) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .